

الحياة الروحية والدينية في فاس من خلال كتاب الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس لمحمد بن عيشون الشراط^{1*}

د. زهراء النظام

استأثرت مدينة فاس منذ القديم باهتمام المؤرخين فالفوا في تاريخها وصنف العلماء في أصول وأنساب سكانها، وأبدع الأدباء والرحالة في وصف مبانيها وفي تقصي أحوالها، وسخر عدد منهم أقلامهم لتدوين أخبار رجالاتها والتعريف بعلمائها وصلحاتها، وكان القرن 12م عصر انطلاقا للكتابة حول مدينة فاس، وظهرت تآليف، منها **تاريخ فاس** لأبي القاسم بن جنون، و**المقباس في أخبار المغرب وفاس** لعبد الملك الوراق، و**المقبس في أخبار المغرب وفاس** والأندلس لمحمد بن حماد البرنسي السبتي، و**كتاب المستفاد بمناقب الصالحين والعباد من أهل فاس وما والاها من البلاد** لمحمد بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بالكتاني، وتعززت هذه التآليف، خلال القرن 14م، بكتابين آخرين هما **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** لعلي بن أبي زرع، و**جنى زهرة الآس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس** لأبي الحسن علي الجزنائي. واغتنت الخزانة المغربية منذ القرن 16م بمجموعة من كتب التراجم خصص البعض منها لتراجم ومناقب صلحاء وعلماء فاس، وقد عرف لفي بروفنصال بمجموعة من هذه المؤلفات في كتابه **مؤرخو الشرفاء**، ويدخل في عدادها كتاب **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس** المنسوب لأبي عبد الله محمد بن عيشون الشراط، الذي اعتنى فيه بتراجم وبمناقب صلحاء وأولياء من فاس.

وارتبط ظهور هذا النوع من التآليف في المغرب بتطور الحركة الصوفية خلال القرن 15م، وباتساع نشاط الطريقة والزوايا مع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، الذي ظهر كزعيم روحي وديني، فانتشر إجلال الصلحاء والشرفاء وتعظيمهم في المدن كما في البوادي. واقترن الاهتمام بأولياء وشرفاء فاس باكتشاف قبر المولى إدريس الثاني في مسجد الشرفاء سنة 1437م وبناء الزاوية الإدريسية الذي أحيى لدى سكان المدينة فكرة تعظيم الأولياء، وظهور نوع من الولاء والتبجيل للشرفاء.

ويبدو من عنوان كتاب الروض، الذي انتهى ابن عيشون من تأليفه سنة 1688م، ومن عنايته بأخبار هذه الفئة وبأحوالها، أن صاحبه تأثر بالمناخ الديني والروحي الذي ساد بمدينة فاس خلال هذه الحقبة، وكان لهذا الأمر كذلك علاقة بشخصه، فهو من محبي أولياء الله الذين لا يخفي تعلقه بهم، وتربيته لا تختلف عن تربيته.

وقد لفت اهتمام ابن عيشون، كون مدينة فاس احتضنت عبر تاريخها "آلاف من الخلق كثيرة، وشملت أمة عظيمة، واحتوت على خير كثير وفضل كبير لم تحوه غيرها من

* فاس في تاريخ المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة " الندوات " فاس 18-20 دجنبر 2008.

مدن المغرب"، فحرك هذا عزمته، كما يقول، لجمع هذا التقييد، الذي يذكر فيه من وقف على تعريفه من الأولياء الكائنين بقاعدة المغرب مدينة فاس.

وعاصر ابن عيشون، الذي عاش ومات بفاس سنة 1697م، كذلك مرحلة الانحطاط التي مرت بها المدينة منذ مطلع ال قرن 17م، والتي لم تشهد لها مثيل من قبل، وتعرضت خلالها لأهوال الحرب وعانت من صراع الأمراء ومن تعسف القبائل ونهبها، ومن بطش الولاية وجبروتهم، وعاین المؤلف وضع المدينة وهي تفقد ذلك التميز الذي تمتعت به في القرون السابقة، حيث توالى عليها النكبات والمجاعات، وخربت دورها وهدمت أحيائها، وفقدت على أثر ذلك الكثير من مقوماتها وقدراتها.

وكان هذا حافز له لتأليف كتابه، الذي ضمنه تفاصيل عن أحداث هذه الفترة، ولعله أراد بعمله هذا رد الاعتبار لفاس بعد المآسي والنوائب والمحن التي ألمت بها، والإهمال الذي طالها خلال ال قرن 17م، ونال من مكانتها الحضارية وأفقدتها بعض من إشعاعها الروحي والديني والعلمي الذي تفردت به.

وجاء الكتاب حافلا بالأحداث التاريخية، جامعا لتراجم عدد من الأولياء والصلحاء والعلماء، الذين عاشوا ودفنوا بفاس بين القرنين 8 و 17م، ومات أغلبهم خلال القرنين 16 و 17م. وراعى المؤلف الترتيب الزمني في تقديمه لتراجم الكتاب، وتتبع مدافن الصلحاء داخل أبواب المدينة وخارجها، وعبر أحيائها وحوماتها وفي مقابرها وزواياها وبيوتها، واستطرد هذه التراجم بمعلومات همت جوانب مختلفة من حياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية والسياسية والعمرانية.

وتعكس هذه العناية بتاريخ مدينة فاس، وبرجالاتها وشيوخها، رغبة ابن عيشون في حفظ ذاكرة المدينة وصيانة مجدها وحضارتها، وإبراز تميزها خاصة في المجالين الروحي والديني.

ولا شك أن المؤلف الذي قضى قسطا من حياته صحبة العباد والمجاذيب كان مطلعاً على أسرارهم، عارفا بأحوالهم، معتقدا في بركتهم ومستحضرا لها، ساعيا لمدهم. ويذكر أنه ألف كتابه تقربا من الله وتبركا بالأولياء والصالحين بذكر أخبارهم والتأمل في سلوكهم ومواهبهم، لأن في ذكرهم، كما يقول، تنزل الرحمة والبركة.

ويتجلى هذا الاهتمام بحياة الصلحاء عند ابن عيشون، كما عند غيره من أصحاب كتب المناقب والتراجم، من خلال المتابعة اليومية لأعمالهم وتدوين ممارساتهم وسلوكياتهم، مع التنويه بفضائلهم، وبمفاخرهم ومناقبهم، ويدخل هذا في باب التعريف بأهمية وبالقيمة الدينية والاجتماعية لهذه الفئة التي كان لها حضور مؤثر في كل مظاهر الحياة بمدينة فاس.

وتحدد طبيعة وحجم هذا التأثير مكانة الولي ومرتبته الدينية والروحية، ويقدم الكتاب نماذج لهؤلاء الأولياء، ومنهم فئة المجاذيب البهاليل، من ذوي الأحوال والوجد والتصريف، الذين يدخلون في عداد الملامية، المنفردين المتجربين، الذين تسقط عنهم صفتي التأهيل والتكليف، وتلك خصوصية لا ينالها إلا من توفرت فيه شروط المشيخة.

وتتدرج أحوالهم من الجذب إلى الوله الدائم والغيبة والاستغراق في الله أو في النبي صلى الله عليه وسلم، وترد في تراجمهم بعض الإشارات الدالة على ممارستهم للشعائر

الدينية مثل الذهاب إلى المسجد للصلاة، وتلاوة القرآن الكريم واتباع السنة الشريفة والمحافظة عليها، وقراءة اللوح المحفوظ، والقيام بالسمع والذكر والتواجد. ولا يعرف لهؤلاء الأولياء عادة شيوخ في الطريق، وتكرر في تراجمهم عبارة " ليس له شيخ " ويشير البعض منهم إلى أخذه عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنه يستمد بركته، وفيهم من كان مدده من القرآن الكريم، وليست لهم طريقة ولا أتباع، وتبقى علاقتهم بغيرهم من الشيوخ في حدود المصاحبة.

أما سلوكهم فيصنف في نطاق ما هو غير معتاد قولاً وفعلًا، ويختلف من الجهر بالقول بما يخالف الشرع أو ظهور أمور على بعضهم يأبأها ظاهره، إلى إضفاء صفات خاصة على الذات والاعتقاد فيها، إلى إراقة الزيت على النفس، والاصطلاء بالنار في زمن الصيف والحر أو التبريد بالماء في الشتاء والبرد.

ومن هؤلاء الأولياء كذلك فئة الصوفية من الخاصة والتابعين من ذوي العرفان والرسوخ والإيقان، ولهؤلاء من الصفات ما يتناسب مع مقامهم مثل الولي الكبير، المجذوب الخطير، بحر التوحيد ومعدن التجريد والتفريد، ومن هذه الصفات ما يدل على بركتهم وعطائهم، مثل العظيم البركة والنور، الغزير الأسرار، المربي النفاع، الكثير الأتباع والأشياء، وتجتمع فيهم إلى جانب الصلاح والخير والفضل، صفات الزهد والورع والتواضع، مع الالتزام بإبداء النصح في أمور الدين والتمسك بالشرعية والعمل بالسنة.

ويقضي الشيخ الصوفي وقته بين الممارسة الصوفية والعبادة، من المواظبة على الذهاب إلى المسجد للصلاة، والتردد على الزاوية لقراءة الأحزاب وتلاوة القرآن الكريم. وللولي الصوفي شيوخ يلزمهم ويأخذ عنهم ويستفيد منهم ويرث حال بعضهم، أو يلجأ إليهم لطلب البركة والتماس الدعاء عند الحاجة، وله كذلك أصحاب يجتمع بهم في الزاوية لإحياء مناسبات الذكر وترديد السماع، ومريدون وتلامذة وأتباع، يقبلون عليه ليربيهم ويلقنهم مبادئ التصوف، ويمنحهم الأوراد، ويعلمهم الأذكار، فيؤهلهم بذلك للمشيخة.

وكلها أمور تدل على نهجه لطريق التصوف والأخذ بمبادئه وسلوك سبيل شيوخه في التربية الصوفية وفي العبادة، وهو ما يميزهم عن غيرهم من المجاذيب والبهاليل.

ومن هؤلاء الشيوخ من ينقطع لعبادة الله عز وجل، ويتحول عندهم هذا الانقطاع أحياناً إلى الزهد في الدنيا والتجرد منها والتخلي عنها بالجوء للخلوة والابتعاد عن الناس وعن صحبتهم.

ونصنف في الكتاب فئة ثالثة من هؤلاء الأولياء الصالحاء، وهم العلماء، الذين يصدق عليهم قول المؤلف: "(...) وهذا الجمع الكثير، والجم الغفير، لا يخلو من الصالحين والصادقين، والعلماء الأخيار المتقين، لاسيما وفيهم من شهد أهل البصائر بخصوصيته وقوة حاله (...).".

ووردت بخصوصهم في الكتاب صفات دالة على علمهم، وعلى تمكنهم ورسوخهم في المعرفة، وعلى تدينهم وولائتهم، وعلى مآثور أفعالهم، وسنى أعمالهم واجتهادهم، وعلى كرم أخلاقهم وخلالهم، وفضل طبعهم وعدلهم.

ويجمع الولي العالم بين عمل الصوفي، وتجسده معرفته بمبادئ التصوف والأخذ بتعاليمه وسلوك سبيله، بملازمة الشيخ والأخذ عنه، والتأدب به والتهذب، وممارسة العبادة، والقيام بالذكر، وترديد السماع، ومعاشرة الأصحاب، وفي استقبال الأتباع وتربية المريدين ومنحهم الأوراد وتلقينهم مبادئ التصوف؛ وبين اجتهد العالم العامل، الجامع لأدوات المعرفة بالعلوم الدينية والعقلية، المدرك لوجود وأهمية الخالق والمؤمن بوحدانيته، العارف بأحكام الشريعة، الضابط لأركانها وقواعدها، وتلك من وسائل التمكين التي تساعد على التعمق في أمور الدين وتثبيت العقيدة الصوفية، ولايتأتى هذا التفرد بمعرفة علمي الشريعة والحقيقة، إلا لولي عالم وكامل راسخ، كما يصطلح عليه عند الصوفية.

وهؤلاء هم من عناهم ابن عيشون بقوله "(...) وإن كان لا يخلو بعضهم من أن تكون شهرته بخطة دنيوية، أو باتخاذ أتباع عن غير بصيرة، أو بعلم ظاهر صرف، أو شبه ذلك (...)".

ويسري على الصوفي العالم ما يسري على غيره من الأولياء من وقوع الفيض وظهور سطوة الحال والبله والغيبة.

ولهؤلاء الأولياء كما جرى التعريف بهم، مجاذيب كانوا أو صوفية أو علماء، مثل الشرفاء، خاصة البركة التي تميزهم عن غيرهم من عامة الناس، وتجعلهم محط تقدير وتعظيم من طرفهم، وتظهر لهم كذلك كرامات وآيات، ولبعضهم مكاشفات وخوارق وعادات، وينطق بعضهم بأمور من المغيبات، وفيهم من يتكلم عن الخواطر، وينبئ عن الضمائر.

وكلها إشارات ترمز لخصوصية الولي، يلجأ لها متى احتاج إلى البرهنة عليها وتأكيد صدقيتها وفعاليتها، وتدل كثرة كرامات الولي على قوة حاله وتعدد مقاماته، وقدرته على الخوض في أمور الناس بالتسهيل والتمكين. وتتنوع الكرامة بين الإغاثة برا وبحرا، وإنقاذ الأمور، والطيران في الهواء، وفك الأسر، وإبراء المرض، وإسقاط المطر، واستحضار البركة في الزرع، وضمان وجوده في زمن العسر والجوع.

- الأولياء مرآة المجتمع:

إن حصول البركة وجريان الكرامة، كما هو وارد في الكتاب، دليل على تأثير الأولياء في حياة الناس. إذ هم لسان حال المجتمع، الكاشف لخواطر وأحوال أفراده والمعبر عن همومهم. والعلاقة بين الولي ومحيطه هي علاقة إيمان بخصوصيته واعتقاد في بركته وكراماته، يقصده الناس للتخفيف من معاناتهم، ولتيسير أمورهم ومساعدتهم على قضاء حوائجهم، ويتطلعون إليه لإنصافهم، أو لرد الخطر ومنع الإذابة عنهم، وللوساطة بينهم وبين ربهم. ويؤدي هذا الاعتقاد في بركة الأولياء وكراماتهم إلى تعلق الناس بهم، ويتحول هذا التقدير أحيانا إلى تقديس لهم.

ويأت المولى إدريس على رأس الأولياء في فاس، فهو باني فاس وسلطانها، ورمز وحدتها وضامن أمنها وحاميها، وقد ظل في حياته محط إجلال وتبجيل من طرف سكانها، وضريحه مزاراة يحج إليه الناس من فاس، ومن كافة جهات المغرب وخارجه للتبرك به وطلب العناية والحماية. ويسري هذا التعظيم والتبجيل على كافة أولياء وصلحاء المدينة ولبعضهم حظوة لدى خاصة سكانها وعامتهم.

وهذا شأن أبي الحسن علي الصنهاجي مثلا الذي كانت ولايته عند أهل فاس قطعية كفلق الصبح "...، وكان يدخل ديار بني مرين فتلتقيه النساء والأولاد فيقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت إلى أحد، ويدفعون إليه الحوائج الرفيعة والذخائر النفيسة، ويلبسه السلطان من أشرف لباسه، فإذا خرج تصدق بكل ذلك...".

ولا تنتهي البركة، أو تتوقف الكرامات بموت الأولياء، بل يظل مفعولها جار بعدهم، وتتحول أضرحتهم إلى مزار، يقصدها الناس للتبرك وجلب الخير، ودفع البؤس والشر والشؤم عنهم، ولأخذ الموائيق والعهود بينهم، ويأتيها المرضى طلبا للاستشفاء. وتشكل أضرحتهم مع زواياهم ملجأ يأوي إليه المستجير والمظلوم لطلب الحماية والعناية مثل زاوية وضريح المولى إدريس، وزاوية وضريح الشيخ أحمد الشاوي، وزاوية محمد بن عبد الله معن، وزاوية أبي المحاسن الفاسي، وزاوية أحمد بن يحيى اللمطي، وضريح الشيخ بوجيدة، وروضة الشيخ أحمد البرنسي، وزاوية وضريح علي بوغالب الصاريوي. .

وتمثل الكرامة الوسيلة التي يعبر بها الولي عن مواقفه حيال قضايا مجتمعه وعصره، وتختلف رمزياتها في الكتاب وتتعدد بحسب الحالات المطروحة أو المعبر عنها، وتأخذ أحيانا بعدا سياسيا أو دينيا أو روحيا أو اجتماعيا.

ونقف على أبعاد هذه الرمزية في الكتاب بفحص محتوى بعض العبارات والألفاظ التي كان يرددها بعض الأولياء، كقولة " أنصروني" التي كانت تتكرر على لسان كل من محمد بن علي الأغصاوي وجلول ومسعود بن محمد الشراط، أوبعض الألقاب التي كان الولي يضيفها إلى اسمه، مثل رسول الله أو السلطان، كما ورد في تراجم الأولياء الثلاث المذكورين.

ولهذه العبارات والألقاب دلالاتها. فهي صادرة عن أولياء مجاذيب ساقطي التكليف، ويقترن الفعل لديهم مع حال الوجد أو الغيبة والوله الذي ينتابهم، وعبارة أنا مسعود رسول الله، التي كان مسعود الشراط يكررها (2)، بإضافة اسمه إلى رسول الله، لها مغزى روحي، وتعني الغيبة في النبي صلى الله عليه وسلم، والأخذ عنه مباشرة، ومن غير واسطة، وترمز كذلك إلى تمام الفتح على يده، وقد تحققت بها غاية بعض الأولياء المجاذيب ممن ليس لهم شيخ في الطريق مثله.

وتعبر كلمة السلطان عن قطبانية الولي وعن رسوخ معرفته في العلمين الظاهر والباطن، وتعني كذلك التأهل للمشيخة؛ وهي درجة لا يبلغها إلا من توفرت لديه حظوة إلهية، وحصل له التأهيل؛ والدعاء بالنصر، والدعوة إلى المناصرة، التي كان جلول يكررها (3)، هي دعوة لتمكينه منها.

وتتعدى هذه الدعوات والألقاب أحيانا معناها الصوفي لتعبر عن واقع معين، وقد يكون لاستعمال تلك العبارات ما يبرره في حياة الولي أو في محيطه، ولتبين حقيقة تلك المواقف والأفعال بالنسبة لهؤلاء الصوفية وإدراك مغزاها ينبغي وضعها في السياق الذي وردت فيه.

ونجد في حالة الأولياء الثلاث أن الصيحات كانت تصدر عنهم وهم في حال الغيبة التي كانت تخرجهم عن حسهم، وتكون مصحوبة بألفاظ يعبر بها الولي، ومن خلالها، إراديا

(2) الروض (ترجمة مسعود بن محمد الشراط) ص 303،

(3) الروض (ترجمة جلول) ص 319

أو لإراديا، عن أهداف ومقاصد معينة، قد تكون لغاية إصلاحية بمحاربة فساد اجتماعي أو مقاومة انحلال أخلاقي، وتتجاوز أحيانا هذه القضايا إلى ما هو سياسي، مثل مقاومة الجور والطغيان، وتأخذ أحيانا شكل احتجاج ضد أفراد بعض أولي الأمر باتخاذ بعض القرارات الصعبة، ويجسده، في هذه الحال، موقف محمد بن علي الأغصاوي، الذي كثيرا ما كان يردد، وهو ببلاد غصاوة، كلمة أنصروني⁽⁴⁾، وكانت تلك العبارة بمثابة صرخة أطلقها في وجه محمد الشيخ المامون السعدي، وأعلن بها تحديه لهذا السلطان، الذي كان الأغصاوي مستاء من سياسته بسبب موالاته للأسبان وعزمه التنازل لهم عن مينائي القصر الصغير والعرائش، واعتبر ذلك تصريح بالدعوة إلى نقض بيعته، مما أزعج المامون فأرسل في طلبه، ولم يفلح تدخل أخي الأغصاوي، الذي بعث لمحمد الشيخ رسالة يلتمس فيها العذر لأخيه ويطلب له العفو من محمد الشيخ المامون، معللا قوله بأن شخصا مجذوبا مثله تغلب عليه الأحوال لا تنبغي مؤاخذته على أفعاله وأقواله تلك، لكن الأغصاوي راجع رسالة أخيه، وكتب على ظهرها موضحا مقصوده، معبرا عن تبرمه من سياسة المامون، متهما إياه بالتضليل وبحياده عن الشريعة، محذرا من مغبة تماديه في تعامله مع النصاري، قاطعا العهد على نفسه بأن لا يلقاه أبدا، قائلا: "...والله لا سعت في وصلك أبدا لأن وصلك بعد من الله وفصلك قرب من الله، فالوجود كله كان يخاطبني باللعنة الصريحة بسبب مخالطتك، فلا تطمع بوصالي أبدا لأنني وصلتك في الله..." وكانت عاقبة تصلب الأغصاوي وتشبته بموقفه أن قتل على يد محمد الشيخ.

ويبين هذا الحدث أن الأغصاوي مثل غيره من الأولياء، قد انخرط في قضايا عصره ونذر نفسه للدفاع عن الحق والجهر بقوله، وعبر بموقفه ذاك عن حالة الاستياء التي عمت في المغرب خلال القرن 17م، والذي كان يمر بفترة انقسام سياسي رافقها تهديد خارجي وتصعد في الجبهة الداخلية، وترتب عن ذلك كساد اقتصادي وانحطاط اجتماعي، لم تسلم فاس من آثاره، وكشف الأغصاوي عن تدمره من هذا الواقع المتأزم الذي تضررت من جرائه البلاد والعباد، وأبان عن خيبته في أولي الأمر الذين تخلوا عن العهد وأخلوا بالأمانة فدفع حياته ثمنا لذلك.

وللعالم الفقيه كذلك طريقته في تناول ومعالجة قضايا عصره. فهو المتمكن من أمور دينه، العارف بالشرع وبحدوده وأحكامه، المدرك لقضايا عصره، المطلع على مشاكل مجتمعه، له القدرة على صياغة آرائه والتعبير عن أفكاره وطرحها بطريقة أكثر عقلانية وواقعية، ويتجاوز أحيانا سلوك سبيل الكرامة في التعبير عن مواقف، إلى الجهر بالقول والفعل، لاسيما حين يتعلق الأمر بتجاوز لحدود الشرع، أو المس بحقوق الناس أو الظلم، فيكون تدخله لتعديل سياسة حاكم أو لتطويع متجبر متسلط أو للحد من سطوة أمير، ونقدم من كتاب الروض نماذج لمواقف بعض من هؤلاء الصالحاء، ونذكر منها القصة المتواثرة التي حصلت لعالم فاس وفقيهها المشهور، أبي الحسن بن حرزهم، مع أحد أمراء صنهاجة الذي استدعاه ليعلمه، فظل الفقيه أبو الحسن يضيق عليه ويأخذه بسلوك الطريق والزهد إلى أن بلغ الأمير النهاية من مقام الورع وكثر أتباعه وتلامذته⁽⁵⁾.

⁽⁴⁾ الروض (ترجمة محمد بن علي الأغصاوي) ص 260.

⁽⁵⁾ الروض (ترجمة علي بن إسماعيل بن حرزهم) ص 65.

ونذكر من هذه المواقف كذلك بالمواجهة التي تمت بين الفقيه أبي محمد عبد العزيز القروي والسلطان أبي الحسن المريني بخصوص مشكل المغارم التي كان السلطان يجحف في فرضها على الناس، والتي اضطر السلطان أبي يعقوب، بسببها، إلى الاعتذار للفقيه والاعتراف بعدم شرعية تلك المغارم⁽⁶⁾.

ثم بقصة الفقيه أبي زيد الهزميري، الذي استدعاه أهل تلمسان للتدخل في الصلح والشفاعة لهم عند السلطان أبي يعقوب المريني أثناء محاصرته لمدينة تلمسان، والذي أجبر، بحضوره إلى المدينة، أبا يعقوب المريني على رفع الحصار عنها والانسحاب إلى مدينة المنصور⁽⁷⁾.

وكان للعناية بالجانب الروحي لدى علماء وفقهاء فاس ما يوازيها من اهتمام بمجالات أخرى، وإلى جانب التدريس وتعليم الطلبة وتلقينهم مختلف أنواع العلوم الشرعية واللغوية والعقلية، كان العلماء والفقهاء يزاولون مهام أخرى علمية ودينية، مثل إصدار الفتاوى، والتصدر للإمامة والخطابة بمساجد المدينة، والمشاركة في المفاوضات الخاصة بالمخزن أو القيام بدور الوساطة بينه أو بين عموم الناس مما كان يزيد من دعم مكانتهم الاجتماعية ويجعلهم محط تقدير واحترام من قبل سكان المدينة.

- الامتداد الروحي والديني لفاس:

لقد غدت فاس منذ تأسيسها قطبا دينيا وتعليميا، ومبعث إشعاع روحي لكل المغرب، وتحققت فيها دعوة المولى ادريس الذي أراد لها أن تكون دار فقه وعلم يتلى فيها كتاب الله وتقام فيها حدوده. واشتهرت المدينة بأساتذتها وفقهائها وعلمائها وأئمتها الذين ذاع صيتهم إلى أقصى بلاد الإسلام، وعرفت كذلك بمدارسها ومساجدها وزواياها التي تميزت كمراكز للتوجيه والتربية والتعليم، وأبرزها جامع القرويين الذي أصبح بعد بنائه قلب فاس النابض ومجمع علماء المغرب وفقهائه وشيوخه، وشكل مصدر إشعاع ديني وروحي للمدينة التي ظلت عبر تاريخها تستقطب باهتمام الرجال الكمل الأقطاب ومقصد الفقهاء والعلماء الأعلام من داخل المغرب وخارجه.

وأحد هؤلاء الأقطاب هو الشيخ محمد بن سليمان الجزولي الذي زار فاس مرتين، الأولى في بداية سلوك الطريق، جاءها باحثا عن شيخ مربى بعدما فشل في التعرف إليه أثناء رحلته إلى المشرق، وتوجت رحلته الثانية إلى فاس بتأليف كتابه **دلائل الخيرات** الذي اعتمد فيه على كتب خزانة القرويين وأصبح كتابه هذا متداول في كثير من بقاع المعمور.

والشيخ الجزولي (ت870هـ) هو مجدد الطريقة الشاذلية وباعثها في الغرب الإسلامي ومؤسس الطريقة الجزولية التي انتشرت في المغرب وإليها انتسب كثير من أولياء فاس وصلحائها، وغدت رمزا لوحدة المدينة الروحية وعنصرا للاتصال والتواصل بين أوليائها وغيرهم من مشايخ المغرب.

ومن شواهد ارتباط أولياء فاس بطريقة الشيخ الجزولي، استعمالهم لأحزابه وترديدهم لتصلياته وأذكاره، التي لا تكاد تخلو منها ترجمة من تراجم كتاب الروض، ومن سند

⁽⁶⁾ الروض (ترجمة عبد العزيز بن محمد القروي) ص 290.

⁽⁷⁾ الروض (ترجمة عبد الرحمان بن عبد الكريم الهزميري) ص 220.

شيوخها الموصول بالجزولي عن طريق تلميذه الشيخ عبد العزيز التابع أو أحد أصحابه أو أتباعه.

وكان لفاس اتصال مع غيرها من مراكز وحواضر المغرب، وكان ذلك يتم من خلال التداول حول بعض القضايا الفقهية المطروحة أو الإشكالات العلمية أو الدينية التي كانت تعرض لفقهاء المدينة وأئمتها وعلمائها ويحتاجون لحلها ومعالجتها إلى رأي غيرهم من فقهاء المغرب وعلمائه وأئمتها.

ويكشف كتاب الروض عن وجود ارتباط عقائدي ومذهبي لفاس مع بلدان المشرق، فكان الذهاب إلى الحج فرصة لعلمائها للاتصال بغيرهم من مشايخ المشرق للأخذ منهم والرواية عنهم ويعودون بعد نهاية دراستهم وتعلمهم إلى فاس فيتصدرون للإفتاء والإمامة بأحد مساجدها أو للتربية والتدريس وتلقين طلبتها مختلف العلوم الدينية من قراءة وتفسير وحديث وتصوف وفقه وغيره.

ويذكر الكتاب كذلك بأسماء لرجالات وأقطاب وعلماء من دول المغرب والمشرق ممن كانوا يقدون على فاس للأخذ عن شيوخها والرواية عنهم والتلقي منهم، وملازمتهم فترات قد تطول أو تقصر، ويرحلون بعد قضاء وطهرهم واستكمال دراستهم إلى بلدانهم ليعلموا ويفيدوا، ومنهم من كان يختار البقاء ومواصلة الدرس والعطاء فيقيم بها يعلم ويفتي ويرشد ويوجه.

ومن هؤلاء الشيوخ العلماء والفقهاء الذين برزوا وتميزوا برحلاتهم إلى حواضر المغرب والمشرق والأندلس:

- العالم الفقيه أبو ميمونة دراس بن إسماعيل، الإمام الحافظ، أخذ عن شيوخ بلده ورحل إلى القيروان وإلى المشرق فحج ولقي جلة من العلماء والشيوخ فقرأ الفقه وروى الحديث، ثم انتقل إلى الأندلس مجاهدا وطالبا، فسمع من عدد من علمائها وشيوخها. ويعد الشيخ دراس أول من أدخل المدونة المالكية برواية سحنون إلى المغرب، وبواسطته انتشر المذهب المالكي واستعاض به المغاربة عن المذاهب والحركات الأخرى التي كانت منتشرة فيه.

- العالم الفقيه أبو محمد صالح بن حرزهم الذي رحل إلى المشرق وحج وزار بيت المقدس والتزم الإمامة بإحدى قراه، ثم انقطع بالشام أعواما اجتمع أثناءها بالإمام أبي حامد الغزالي وأصبح من مريديه، وتولى نشر طريقه حين عاد إلى فاس.

- الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محسود الهواري، درس على شيوخ وعلماء فاس، ثم رحل إلى القيروان للأخذ عن علمائها فسمع من الفقيه محمد بن أبي زيد ومن غيره من الشيوخ ثم عاد إلى فاس حيث تولى بها القضاء.

- الفقيه عثمان بن عبد الله السلاجي، الأصولي، إمام أهل المغرب في الاعتقاد، قرأ بفاس على علي بن حرزهم كتاب الإرشاد ثم رحل إلى بجاية لاستكمال دراسته في علم الاعتقاد في كتاب الإرشاد وعاد بعد ذلك إلى فاس ليشغل بالتدريس.

- الإمام العالم الأستاذ، أبو مهدي عيسى بن أحمد الماواسي، فقيه فاس ومفتيها، وخطيب جامع القرويين، أخذ عن شيوخ فاس وتلمسان سائر العلوم منهم الإمام المفتي الكبير أبو محمد عبد الله العبدوسي.

وممن زار فاس من شيوخ وعلماء وفقهاء بلاد المغرب والمشرق:

- الفقيه أبي العباس أحمد بن محمد اليميني، قدم إلى فاس من اليمن ولقي بها الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله معن وصحبه، وأقام بفاس إلى حين وفاته.

- الشيخ أبي مدين الغوث قدم إلى فاس وكان من المترددين إلى مجلس الفقيه علي بن حرزهم ولازمه وسلك على يديه وقرأ عليه رعاية المحاسبي وإحياء علوم الدين، وأخذ الحديث عن أبي الحسن علي بن غالب، والطريقة عن أبي عبد الله الدقاق، وأخذ عنه من شيوخ فاس الشيخ إبراهيم الزواري والشيخ أحمد البرنسي وقرأ عنه علم الأصول وعلم الكلام.

وكما أن الأندلس ظلت عبر تاريخها قبلة لعلماء المغرب فإن من بين علمائها وفقهائها كذلك من كانت تستهويهم الرحلة إلى فاس لطلب العلم والأخذ عن شيوخها أو للتدريس والإفادة بها. ومنهم من جاء إليها مكرها بسبب الضغوط التي كان يتعرض لها المسلمون هناك على يد المسيحيين خاصة أثناء فترة حروب الاسترداد فاختر بعضهم الإقامة بها حيث اندمجوا مع سكانها، وساهم هؤلاء الوافدون في إثراء الحياة الدينية والروحية لفاس عبر تعاطيهم للتدريس بمساجدها ومدارسها ومن خلال توليهم لمهام ولخطط دينية مثل الإمامة والخطابة والإفتاء والقضاء. وممن قدم منهم إلى فاس واستوطنها:

- الفقيه الصوفي محمد بن إبراهيم بن عباد، إمام جامع القرويين وخطيبه، ولد بالأندلس ثم رحل إلى فاس وتلمسان فتلقى على يد علمائهما أصنافا مختلفة من العلوم مثل الأصول والنحو والعربية والفقه ودرس بها كتباً مثل كتاب الإرشاد ومختصر بن الحاجب الفرعي والأصلي وتسهيل بن مالك.

- الإمام العالم القاضي، أبو بكر محمد بن العربي المغافري، قدم إلى فاس من اشبيلية لطلب العلم والأخذ عن شيوخها، ثم رحل إلى المشرق للحج وطلب العلم.

- الفقيه علي بن أحمد الكناني، درس بالأندلس وكانت له رحلة إلى المشرق، حج فيها ولقي جلة من العلماء والصوفية، منهم الإمام أبي حامد الغزالي، فصحه وسمع منه الموطأ، ثم أقام ببيت المقدس يعلم القرآن وعاد بعد ذلك إلى فاس حيث التزم الإمامة بمسجده الذي عرف به وتصدر للتدريس والإقراء بها.

وكان لهؤلاء العلماء والفقهاء والصوفية الفضل في جلب عدد من كتب الفقه والحديث والتفسير والتصوف إلى المغرب، وساهموا في انتشار هذه المؤلفات التي أصبحت متداولة بفاس وبغيرها من مدن المغرب، ومنها كتابي الموطأ والمدونة لمالك بن أنس وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ورعاية المحاسبي، والمدونة للفقيه سحنون، والإرشاد للإمام الجويني، والرسالة القشيرية للقشيري، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، والشفا والمدارك والمشارك للقاضي عياض والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وكتاب التسهيل لأبي عبد الله

بن مالك، وكتاب **الشهاب** للقاضي أبي عبدالله القضاعي، وكتاب **ثعلب** لأبي العباس ثعلب، ومختصري ابن الحاجب.

وقد تجلّى الارتباط الروحي والديني لصلحاء فاس بغيرهم من صلحاء وعلماء المشرق وبلاد المغرب في توارثهم للمشيخة، وعبراتهم بالسند الديني الموصول بسلسلة من الشيوخ التقاة والرواة الكبار، والممتد إلى قطب الأقطاب، الشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي ومنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

تلك كانت بعض من ملامح الحياة الروحية والدينية التي ميزت مدينة فاس، استقيناها من كتاب الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، وحاولنا أن نسلط من خلالها الضوء على دور ومكانة وأهمية الأولياء الصلحاء كفة دينية وكقيمة اجتماعية، كان لها وزنها في صنع تاريخ فاس وفي رسم وتشكل الوجه الحضاري للمدينة والمغرب.